صوت صارخ في البريّة

«وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية ، قائلاً : توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات ...

كما هو مكتوب في الأنبياء : ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيىء طريقك قدامك ..

كما هو مكتوب في سفر أقوال أشعياء النبي القائل: صوت صارخ في البرية : أعدوا طريق الرب ، اصنعوا سبله مستقيمة . كل واد يمتلىء ، وكل جبل أكمة ينخفض ، وتصير المعوجات مستقيمة ، والشعاب طرقاً سهلة ، ويبصر كل بشر خلاص الله ... »

(مت ٣ : ١ - ٣ ، مر ١ : ٢ - ٣ ، لو ٣ : ٢ - ٦ ، يو ١ : ٢٣)

obeikandi.com

obeikandl.com

في تاريخ النبوات ، كثيراً ما يتعاصر الأنبياء ..

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ... فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت : ١٦ ، ٢٦ : ٢٧] .

ويتعاصر الأنبياء ويكونون أحياناً من أسرة واحدة ، ومن هنا تعاصر داود وسليمان ، وتعاصر موسى وهرون ، كما تعاصر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، ويعقوب والأسباط ... وهكذا .

«والأنبياء في بني إسرائيل لم يكن وجودهم ندرة ، ولم يكن بينهم فترة ... أو لم يكن حتماً لزاماً أن تكون بينهم فترة ، كما جاء في سفر الملوك الأول حيث جمع ملك إسرائيل (الأنبياء نحو أربعمائة رجل وسألهم : أأذهب إلى رامة جلعاد للقتال؟). وخير ما ورد في وصف مكان الأنبياء بين بني إسرائيل قول النبي محمد صلوات الله عليه : (علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل) ، فقد كان عمل النبي في شعب إسرائيل كعمل العالم الفقيه ، ولم يكن من المستغرب أن يسمع بهم الخاصة والعامة في وقت من الأوقات ، ولم يكن قيامهم إنكاراً لقيام الأنبياء من قبلهم ، بل هو تفسير للكتب والنذر ، وحض على اتباع السنن التي رسمها لهم من قبل إبراهيم وموسى ويعقوب وغيرهم من الأنبياء السابقين ... ولعلنا نصف الحالة حق وصفها حين نقول إنّ القوم كانوا يبحثون عن الأنبياء ويترقّبونهم ، ولايعتبرون ظهورهم خارقة يستهولونها أو يستغربون تكرارها» [1].

ومن الأنبياء من يمهّد الطريق لمن بعده ، ويعدّ الناس لاستقبال النبوة في ذريته أو في غيرها ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ

---

١ - العقاد : عبقرية المسيح (كتاب اليوم) ص ١٦ ، ١٩ .

إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة : ١٢٤] . ولقد توجه إبراهيم وإسماعيل إلى الله بالدعاء أن يبتعث من ذريتهما رسولا ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٩] . ولقد بشر المسيح - عند أهل القرآن - برسول من بعده ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف : ٦] .

كذلك كان يوحنا بالنسبة للمسيح ، بشارة وإعداد ...

ونحن نجد في القرآن تشابهاً وتجانساً بين كلمات (يحيى) وكلمات المسيح :

﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم : ١٢ - ١٥] .

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ﴾ [مريم : ٣٠ - ٣٤] .

فلنستمع إذن إلى **يوحنا** ، يصرخ في البرية ...

كان يوحنا في صرخته تقدمة بين يدي رسالة المسيح ، كذلك كان في تعاليمه وسيرته ، وفي بشارته ونذارته ...

«فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته قال لهم : يا أولاد الأفاعي ، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي ، فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة . ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبا ، لأني أقول لكم إنّ الله قادر

أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم !! والآن قد وُضعت الفأس على أصل الشجر ، فكل شجرة لاتصنع ثمراً جديًّا تقطع وتلقى في النار » (مت ٣ : ٧-١٠، لو ٣ : ٧-١٠) .

هكذا صرخ يوحنا في الفريسيين والصدوقيين ... وقد تطاولت دعاواهم بأنهم أولاد إبراهيم وكفى ، وصدق الله حيث يقول في القرآن في نفس القضية ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ٦٨] ، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء : ١٢٣] .

ونفس الصرخة صرخها المسيح بعد يوحنا :

«ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لأنكم تشبهون قبوراً مبيّضة ، تظهر من الخارج جميلة ، وهي من الداخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة!! هكذا أنتم أيضاً ، من خارج تظهرون للناس أبراراً ، ولكنكم من داخل مشحونون رياء وإثماً !! ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لأنكم تبنون قبور الأنبياء وتزيّنون مدافن الصديقين ، وتقولون لو كنا في أيام آبائنا لما شاركناهم في دمّ الأنبياء !! وأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء ، فاملأوا أنتم مكيال أبائكم أيتها الحيات أولاد الأفاعي ، كيف تهربون من دينونة جهنم ؟ لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة ، فمنهم تقتلون وتصلبون ، ومنهم تجلدون في مجامعكم ، وتطردون من مدينة إلى مدينة ، لكي يأتي عليكم كل دم زكيّ سفك على الأرض - من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن برخيّا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح - الحق أقول لكم : إن هذا كله يأتي على هذا الجيل . يا أورشليم يا أورشليم . يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها !! كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة أفراخها تحت جناحيها - ولم

تريدوا ، هو ذا بيتكم يترك لكم خراباً ، لأني أقول لكم : إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا : مبارك الآتي باسم الرب »[1] .

نذير مبين ، وبيان رائع ...

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ !!؟ [البقرة : ٨٧] .

كان يوحنا تقديماً للمسيح بسيرته ، كما كان تقديماً له بتعاليمه ... كان زاهداً بسيطاً : «ويوحنا هذا كان لباسه من وبر الإبل وعلى حقويه منطقة من جلد ، وكان طعامه جراداً وعسلاً برياً »(مت ٣ : ٤ ، مر ١ : ٦) . وقد كابد العنت من اليهود ، كما لقى العسف من السلطة ... كان صريحاً لا يداهن ولا يرائي : «وسأله الجموع قائلين : فماذا نفعل ؟ فأجاب وقال لهم : من له ثوبان فليعط من ليس له ، ومن له طعام فليفعل هكذا . وجاء عشّارون أيضاً ليعتمدوا ، فقالوا له يا معلم ماذا نفعل ؟ فقال لهم : لاتستوفوا أكثر مما فُرض لكم . وسأله جنديون أيضاً قائلين : ماذا نفعل نحن ؟ فقال لهم : لا تظلموا أحداً ، ولا تشوا بأحد ، واكتفوا بعلائقكم» (لو ٣ : ١٠-١٤) .

ولم يكتف يوحنا بتنظيف أدنى درجات السلّم ، بل أصرَّ على أن يطهّر السلّم من أعلاه «... كان يقول لهيرودوس : لا يحلّ لك امرأة أخيك ، فحنقت هيروديا

---

١ - مت ٢٣ : ٢٧-٣٩ ، وقد اختلفت الآراء في زكريا بن برخيا ، ويرجح القديس إيرونيموس أنه زكريا ابن يوداياع الذي قتله الملك يوآش بين القدس ومذبح المحرقات - كما ورد في سفر أخبار الأيام الثاني (٢٤ : ٢٠-٢٢) ، إذ من المحتمل أن يوداياع كان يحمل اسم برخيا ، أو أن يوداياع كان جدًّا لزكريا (لويس برسوم : حياة يسوع المسيح ج٢ ص ١٠٣) .

عليه .... »- إلى آخر هذه المأساة التي تقدّمت في الإطار التاريخي لفصول هذا الكتاب.

سيرة يوحنا إذن صورة لسيرة المسيح من بعده ، وما سيلقاه المسيح من بعده .. وتمخَّض كفاح المعمدان عن رأسه فوق طبق ، وانتهى كفاح المسيح بإصدار حكم إعدامه على خشبة الصليب !!

«وكانت يد الرب معه ، وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس وتنبّأ قائلاً : مبارك الرب إله إسرائيل لأنه افتقد وصنع فداء لشعبه ، وأقام لنا قرن خلاص في بيت داود فتاه ، كما تكلّم بفم أنبيائه القديسين الذين هم منذ الدهر . خلاص من أعدائنا ، ومن أيدي جميع مبغضينا !! ليصنع رحمة مع آباءنا ، ويذكر عهده المقدس - القسم الذي حلف لإبراهيم أبينا أن يعطينا : إنّنا بلا خوف ، منقذين من أيدي أعدائنا ، نعبده بقداسة وبرّ قدّامه جميع أيام حياتنا . وأنت أيها الصبي ، نبيّ العليّ تدعي ، لأنك تتقدّم أمام وجه الرب لتعد طرقه ، لتعطي شعبه معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم ، بأحشاء رحمة إلهنا التي بها افتقدنا المشرق من العلاء ، ليضيء على الجالسين في الظلمة وظلال الموت ، لكي يهدي أقدامنا في طريق السلام» (لو ١ : ٦٦-٧٩).

ثم كان يوحنا يحمل بشارة صريحة بالمسيح ...

«أنا أعمِّدكم بماء للتوبة ، ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى منّي ، الذي لست أهلاً أن أحمل حذاءه ، هو سيعمّدكم بالروح القدس ونار ، الذي رفشه في يده وسينقي بيدره ويجمع قمحه إلى المخزن ، وأما التبن فيحرقه بنار لا تُطفأ» (مت ٣ : ١١-١٢ ، لو ٣ : ١٦-١٧).

لقد كان انتظار المسيح يدفع الناس إلى أن يتساءلوا : هل يوحنا هو المسيح ؟ فما كان يتركهم في هذا لإبهام أو إيهام : «وإذ كان الشعب ينتظر ، والجميع يفكّرون في قلوبهم عن يوحنا لعلّه المسيح ، فأجاب يوحنا الجميع قائلاً : أنا أعمدّكم بماء ، ولكن يأتي من هو أقوى مني ... إلخ »، «فسألوه وقالوا له : فما بالك تعمّد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي ؟ أجابهم يوحنا قائلاً : أنا أعمّد بماء ، ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه ، هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدّامي» (لو ٢ : ١٥ ، يو١: ٢٥-٢٧) فيوحنا يعرف جليًّا أنه تقدمه بين يدي للمسيح ... ويصرّح بذلك .

ولكن هل كان يعرف المسيح بشخصه وعينه ، أم بوصفه المرتقب وحسب ؟

في إنجيل متى : «حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه ، ولكن يوحنا منعه قائلاً : أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إليّ ؟؟ فأجاب يسوع وقال له : اسمح الآن ، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمّل كل برّ . حينئذ سمح له ، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء» (مت ٣ : ١٣-١٦) . لكننا نجد في إنجيل لوقا خبراً آخر عن يوحنا ، بعد أن ظهرت رسالة المسيح وفشت معجزاته : «فأخبر يوحنا تلاميذه بهذا كلّه ، فدعا يوحنا اثنين من تلاميذه وأرسل إلى يسوع قائلاً : أنت هو الآتي أم ننتظر آخر ؟ فلما جاء إليه الرجلان قالا : يوحنا المعمدان قد أرسلنا إليك قائلاً : أنت هو الآتي أم ننتظر آخر ؟؟ وفي تلك الساعة شفى كثيرين من أمراض وأدواء وأرواح شريرة ، ووهب البصر لعميان كثيرين . فأجاب يسوع وقال لهما : اذهبا وأخبرا يوحنا بما رأيتما وسمعتما ، إن العمي يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون ، والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون ، وطوبى لمن لا يعثر فيّ» (لو ٧ : ١٨-٢٢) .

وعلى أثر هذا انبرى المسيح يخطب ، يعرّف نفسه بعد أن قدّمته عجائبه ، ويشيد بسلفه يوحنا الذي حمل البشارة به : «فلما مضى رسولا يوحنا ابتدأ يقول للجموع عن يوحنا ، ماذا ؟ خرجتم إلى البريّة لتنظروا إنساناً لابساً ثياباً ناعمة ؟ هو ذا الذين في اللباس الفاخر والتنعّم ، هم في قصور الملوك ، بل ماذا خرجتم لتنظروا ؟ أنبيّا ؟ نعم أقول لكم - وأفضل من نبي ، هذا هو الذي كُتب عنه : ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ طريقك قدّامك ، لأني أقول لكم إنه بين المولودين من النساء ليس نبيّ أعظم من يوحنا المعمدان ، ولكن الأصغر في ملكوت الله أعظم منه . وجميع الشعب إذ سمعوا والعشارون برّوا الله معتمدين بمعمودية يوحنا ، وأما الفريسيون والناموسيون فرفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم غير معتمدين منه » (لو ٧ : ٢٤-٣٠) .

والمسيح يشير أحياناً في مواعظه إلى يوحنا ويحاجّ اليهود به : «وفي أحد تلك الأيام إذ يعلّم الشعب في الهيكل ويُبشِّر ، وقف رؤساء الكهنة والكتبة مع الشيوخ وكلّموه قائلين : قل لنا بأي سلطان تفعل هذا ، أو من هو الذي أعطاك هذا السلطان ؟ فأجاب وقال لهم : وأنا أيضاً أسألكم كلمة واحدة ، فقولوا لي : معمودية يوحنا من السماء كانت أم من الناس ؟ فتآمروا بينهم قائلين : إن قلنا من السماء يقول فلماذا لم تؤمنوا ! ، وإن قلنا من الناس فجميع الشعب يرجموننا لأنهم واثقون بأنّ يوحنا نبي ! فأجابوا : أنهم لا يعلمون من أين ، فقال لهم يسوع : ولا أنا أقول لكم بأي سلطان أفعل هذا» (لو ٢٠ : ١-٨) .

والمسيح يقارن بين مسلكه وبين مسلك يوحنا ، وينعي على تكذيب الناس له وليوحنا : «وبمن أُشبّه هذا الجيل ؟ يشبه أولاداً جالسين في الأسواق ينادون إلى أصحابهم ويقولون : زمّرنا لكم فلم ترقصوا ، نُحنا لكم فلم تلطموا .... لأنه جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب ، فيقولون فيه شيطان !! جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب ،

فيقولون هو ذا إنسان أكول وشريب خمر ، محبّ للعشارين والخطاه !! » (مت ١١ : ١٦-١٩) .

وهكذا كان يوحنا والمسيح من طبيعتين متباينتين ، ويوضح هذا الأستاذ العقاد بقوله : «السيد المسيح طبيعةٌ أخرى غير طبيعةُ يحيى بن زكريا ، فلم يكن متأبداً ولا نافراً من الناس ، بل كان يمشي مع الصالحين والخاطئين ، وكان يشهد الولائم والأعراس ، ولم يكن يكره التحية الكريمة التي تصدر من القلب ولو كانت فيها نفقة وكلفة ... هذه السماحة قد اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور ، كما اصطدمت بهما تلك الصرامة (من يحيى) ... رسالة قد استوفت تجربتها بل تجربتيها ، وخرجت من التجربتين معاً إنسانية عالمية تنادي من يستمع إليها ، وتعرض عمّن أعرض عن دعوتها بل دعوتيها : دعوة الغيرة الصارمة الأبيّة ، ودعوة الغيرة السمحة الرضية »[1].

«وحدثت مباحثة من تلاميذ يوحنا مع يهود من جهة التطهير ، فجاءوا إلى يوحنا وقالوا له : يا معلم ، هوذا الذي كان معك في عبر الأردن الذي أنت شهدت له هو أن يعمّد والجميع يأتون إليه ، فأجاب يوحنا وقال : لا يقدر إنسان أن يأخذ شيئاً إن لم يكن قد أعطى من السماء !

أنتم أنفسكم تشهدون لي أنّي قلت لست أنا المسيح ، بل إني مرسل أمامه ... من له العروس فهو العريس ، وأما صديق العريس الذي يقف ويسمعه فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس ! إذن فرحي هذا قد كمل ، ينبغي أنّ ذلك يزيد وأنّي أنقص ! الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع ، والذي من الأرض هو أرضي ومن الأرض يتكلم ! الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع وما رآه وسمعه به يشهد ،

---

١ - العقاد : عبقرية المسيح (كتاب اليوم) ص ١١٦ ، ١١٧ .

وشهادته ليس أحد يقبلها ، ومن قبل شهادته فقد ختم أنّ الله صادق ، لأن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله ، لأنه ليس بكيل يعطي الله الروح . الآب يحب الابن وقد دفع كلّ شيء في يده . الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية ، والذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة .. بل يمكث عليه غضب الله » (يو ٣ : ٢٥-٣٦) .

وارتبط اسم (يوحنا) بطقس (المعمودية) ، فكان يوحنا المعمدان ...

ومعمودية يوحنا هي الأخرى تصرخ في البريّة مع صوته : طقس من طقوس الطهارة الحسية يغسل عن البشر أدران الجسد ، ويوقظهم لتطهير القلوب والأرواح .

ولم تخل الأديان من هذه (الرمزيات) ، تهمز أتباعها ليكونوا دائماً ذاكرين ، وتخرجهم عن (روتين) الحياة المألوفة بعمل غير مألوف ، لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ..

ولقد جاء الإسلام بعدئذ يتضمّن بين أحكامه الكثير عن الطهارة .. وفيه الاغتسال والوضوء . وليست هذه الطقوس شكلاً ومظهراً ، أو إعناتاً ومشقة : ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾ [المائدة : ٦ ، ٧] . وهكذا لم تأت طقوس العبادات ، **إلا تذكرة بالرب** المعبود .

والمسيحية جاءت تحذر الناس من (تجميد الدين) في الطقوس والأشكال - وسنعالج هذا في فصل قادم ، وحسبنا أن نقول الآن : إنّ يوحنا أشار إشارة واضحة صريحة إلى أنّه هو يُعمّد بماء ، لكن الذي يأتي بعده «سيعمّدكم بالروح القدس ونار »!

وما كان يوحنا وحده هو الصارخ في البرية ... وإنما كان **واقع الحياة** يصرخ وقتها إرهاصاً بالحدث الجديد ...

العالم الروماني تُهدّده انثيالات البرابرة في أطرافه ، وتنخر أزمات الحكام والمحكومين في داخله ، وتلّح عليه جوعته العقلية النفسية تطلّعاً لغذاء فكر وروح ، بعد أن تخمت البطون وترفت الأجساد ... واليهود تناحرت طوائفهم وتفاقمت انحرافاتهم ...

«ويضاف إلى هذا أنّ عصر الميلاد قد شهد في فلسطين طوائف شتى من الأساة الذين يطبّبون المرضى بالعلاج الروحاني ، ويعتمدون على قوة الإيمان وطهارة المعيشة في التطيب والعلاج . وإذا قلنا إنّ عصر الميلاد قد شهد عصراً مهيض الأعصاب ، فنحن نلتفت التفاتاً خاصًّا إلى هذه الظاهرة التي تشير إلى الحالة النفسية في جملتها ، فليس أحوج من عصر كذلك العصر إلى السكينة وثقة الإيمان ... فلم يأت أوان الرسالة المسيحية حتى كانت قد سبقتها رسالات تمهّد لها وتعمل في وجهتها عمل الرُوّاد السابقين ، وقد كان أقوى هؤلاء الرّواد يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان - وإن لم يكن هو الرائد الوحيد في طريق الرسالة والنبوّة - فجعل للتطهير رمزاً من الاغتسال بالماء ...

وكثر الحديث بين الناس عن الأرباب والأديان والمذاهب والعقائد ، وتبادل المفكرون والفلاسفة البحث فيها بعد انتقال مدارس الحكمة والعلم إلى الإسكندرية ، وتلاقى الحكماء والعلماء فيها من كل مذهب وكل عقيدة ، وتعوّد الناس أن ينظروا إلى الأمور نظرة عالمية وبخاصة بين أهل الدرس والتأمل والمطالب الروحية ...

إنّ عصر الميلاد قد شهد عدة موجات دينية تجري من الشرق وتغمر بلاد الدولة الرومانية نفسها ، ومنها العاصمة الكبرى ..

والدلالة الكبرى التي تتجمّع من شيوع هذه النحل في عصر الميلاد أنّها :

أولاً: علامة على طلب الاعتقاد ، وإحساس المخلصين المستعدين للإيمان بما يحيط بهم من الخواء في جوّ التقاليد والمعتقدات . وأنها : **ثانياً** علامة على الوجهة العالمية التي أخذت تسري في أنحاء العالم المعمور ، وتُؤلف بين أبناء الأمم المختلفة في طلب العقائد الروحية ...

وكانت المذاهب الفكرية التي يتحدّث بها المثقفون شائعة في بلاد الجليل حيث وُلد السيد المسيح ، وحيث اختلط الغربيون والشرقيون - وأكثرها الفيثاغورية والأبيقورية والرواقية ... وهذه المذاهب الثلاثة تتلاقى في غاية واحدة : هي طلب السكينة والراحة ، إلا أن الفيثاغورية التي ظهرت قبل عصر الترف والسلطان كانت أقرب إلى الروحانية والمزج بين عقائد الأمم المختلفة من اليونان والمصريين والفرس والهنود ، وهي جميعاً أقرب إلى النشأة الشرقية لأنها نشأت بين قبرص وآسيا الصغرى ...

وتواريخ الأديان جميعاً تثبت الحقيقة الواضحة : اطِّراد السنن الكونية في الحوادث الإنسانية الكبرى ، فلا يحدث طور من أطوار الدين أو الدنيا إلا سبقته مقدّماته التي تُمهِّد لحدوثه وجاء سريانه في العالم على وفاق لوازمه ودواعيه ، وليست المسيحية شذوذاً عن هذه القاعدة ... فما هي آفة العصر التي برزت في التاريخ ، واتفقت عليها أوصاف المؤرخين الذين توقّعوا الانقلاب فيه من طريق الدين أو من غير طريق الدين ؟

كانت له آفتان بارزتان : إحداهما تحجّر الأشكال والأوضاع في الدين والاجتماع ، والأخرى سوء العلاقة بين الأمم والطوائف مع اضطرارها إلى المعيشة المشتركة في بقعة واحدة من العالم المعمور - وعلى الخصوص تلك الأقاليم التي نسميها اليوم بالشرق الأدنى . تحجَّرت الأشكال والأوضاع وغلبت المظاهر

على كل شيء ، فكل معنى الحياة عندهم سمت وزينة وأبّهة ومحافل وشارات ، وانتقلت الحضارة من الداخل إلى الخارج - أو من النفس إلى الجسد ، كما يحدث دائماً في أعقاب الحضارات : تبدأ في عالم الفكر والوجدان ، ثم تستفيض العمارة فتميل إلى التجسّم والتضخّم وتفقد من قوة النفس والضمير بمقدار ما تكسب من مظاهر المادة والمال . تجمّعت الثروة والكسل في ناحية ، وتجمّعت الفاقة والجهد المرهق في ناحية أخرى !! فغرق السادة في الترف وغرق العبيد والأرقّاء في الشقاء ، وفسدت حياة هؤلاء وهؤلاء !! وتحجّر نظام المجتمع فأصبح أشكالاً ومراسم خلوا من المعنى والغاية ، وتحجّرت معه الشرائع والقوانين فلم يكن غريباً أن تُنقش على حجارة ، وأن يرتفع ميزانها في يدي عدالة معصوبة العينين ، وأن تفرغ الكفتان فتستويان لأنهما فارغتان !! وتحجّرت العقائد الوثنية في الدولة الرومانية ، وتحجّرت العقائد الكتابية بين بني إسرائيل فأصبح فرق الشعرة بين النصّين يقيم الحرب الحامية على قدم وساق ، وأصبحت التقوى علماً بالنصوص وبحثاً عن مراسم الشريعة ، وغلب المظهر على المتشبّثين بالنصوص والمتصرّفين فيها ، فلا خلاف بينهم في طلب المظهر وإن اختلفوا على اللفظ والتأويل . وساءت العلاقة بين الأمّة والأمّة ، وبين الطائفة والطائفة ... **دُنْيا آفتها مظاهر الترف ومظاهر العقيدة ، ومن وراء ذلك باطن هواء وضمير** خواء !! فلا جرم يكون خلاصها في عقيدة لا تؤمن بشيء كما تؤمن ببساطة الضمير ، ولا تُعْرِضُ عن شيء كما تُعْرِضُ عن المظاهر ، ولا تضيق بخلاف كما تضيق بالخلاف على النصوص والحروف !! ... وتقطّعت الأسباب بين الأمم وبين الطوائف وبين الآحاد ، واتسمّ العصر كله بالعصبية في السائد والمسود والحاكم والمحكوم : الروماني سيد العالم بحقه ، والإسرائيلي سيد العالم بحق إلهه ، واليوناني والآسيوي والمصري كلّ منهم سيد الأمم وكل منهم مثال الهمجية ! والمولى يخرج العبد من زمرة الآدميين ، والعبد يمقت السيد مقت الموت ! وأبناء الأمة الواحدة طوائف طوائف ، تشيع بينها التهم وتعميها البغضاء !

ويأتي إلى هؤلاء البشير المنظور ... فماذا يقول لهم إن لم يقل لهم إنّ الله رب بني الإنسان وإنّه هو ابن الإنسان ، وإنّ الحب أفضل الفضائل وأفضل الحب حب الأعداء ، وإنّ الكرم أن تعطي فوق ما تسأل وأن تعطي بغير سؤال ؛ وإنّ ملكوت السموات لا تفتحه الأموال »[1] .

هذا هو العالم الذي كان ينتظر الرسول ... وجاءه الرسول يناديه : «تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم ... احملوا نيري عليكم ، وتعلموا مني ، لأنّي وديع ومتواضع القلب ... فتجدوا راحة لنفوسكم ، لأنّ نيري هين وحملي خفيف» (مت ١١ : ٢٨-٣٠) .

وكان **المولد الغريب** للمسيح صوتاً آخر يصرخ في البرية ، قبل أن يرتفع صوت المسيح نفسه ...

«فدخل إليها الملاك وقال : سلام لك أيتها المنعم عليها ، الربّ معك ، مباركة أنت في النساء ... فقال لها الملاك : لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله ، وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمّينه يسوع - هذا يكون عظيماً وابن العليّ يُدعى ، ويعطيه الإله كرسي داود أبيه ، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية . فقالت مريم للملاك : كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً ؟ فأجاب الملاك وقال لها : الروح القدس تحلّ عليك ... فقالت مريم : تعظّم نفسي الرب ، وتبتهج روحي بالله مخلصي ، لأنه نظر إلى اتضّاع أمته ، فهو ذا منذ الآن جميع الأجيال تُطوّبُني ، لأنّ القدير صنع بي عظائم واسمه قدوس ... صنع قوّة بذراعه ، شتّت المستكبرين بفكر قلوبهم ، أنزل الأعزّاء من الكراسي ورفع المتضّعين ، أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين ....» (لو ١ : ٢٨ ، ٣٠-٣٥ ، ٤٦-٥٣).

---

١ - العقاد : عبقرية المسيح (كتاب اليوم) ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ١٠١ - ١٠٣ .

ولا عجب أن تتحدّث مريم بنعمة الله هذا الحديث الطيب ، فهي الأخرى آية من آيات الله ومن عباده المصطفين الأخيار : ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران : ٣٥ - ٣٧] ، ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران : ٤٢ ، ٤٣] .

فقصة مريم ، وقصة مولد المسيح من إرهاصات الدين الجديد ...

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون : ٥٠] ، ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ٩١] .

والأناجيل تضيف إلى ذلك مزيداً من الإرهاصات ...

«ولما وُلد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودوس الملك ، إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين : أين هو المولود ملك اليهود ، فإننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له ؟ ... حينئذ دعا هيرودوس المجوس سرًّا ، وتحقّق منهم زمان النجم الذي ظهر ، ثم أرسلهم إلى بيت لحم وقال : اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبي ، ومتى وجدتموه فأخبروني لكي آتي أنا أيضاً وأسجد له . فلما سمعوا من الملك ذهبوا ، وإذا النجم الذي رأوه في المشرق يتقدّمهم حتى جاء ووقف - فوق حيث كان الصبي . فلما رأوا النجم فرحوا فرحاً عظيماً جدًّا، وأتوا إلى البيت ورأوا

الصبي مع مريم أمه ، فخرّوا وسجدوا له . ثم فتحوا كنوزهم وقدّموا له هدايا ذهبا ولبانا ومرّا ، ثم إذ أوحى إليهم في حلم ألا يرجعوا إلى هيرودوس ، انصرفوا في طريق أخرى إلى كورتهم » (مت ٢ : ١-١٢) .

«فولدت ابنها البكر ، وقمّطته وأضجعته في المذود - إذ لم يكن لهما موضع في المنزل . وكان في تلك الكورة رعاة متبدّين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم ، وإذا ملاك الرب وقف بهم ، ومجد الرب أضاء حولهم ، فخافوا خوفاً عظيماً . فقال لهم الملاك : لا تخافوا ، فها أنا أبشّركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب ، إنه وُلد لكم اليوم في مدينة داود مخلّص هو المسيح الربّ ، وهذه لكم العلامة تجدون طفلاً مقمّطاً مُضجعاً في مذود . وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السموي ، مسبّحين الله وقائلين : المجد لله في الأعالي ، وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرّة ! ولما مضت عنهم الملائكة إلى السماء ، قال الرجال الدعاة بعضهم لبعض : لنذهب الآن إلى بيت لحم وننظر هذا الأمر الواقع الذي أعلمنا به الرَّب ، فجاءوا مسرعين ووجدوا مريم ويوسف والطفل مُضجعاً في المذود . فلما رأوه أخذوا بالكلام الذي قيل لهم عن هذا الصبي ، وكلّ الذين سمعوا تعجّبوا مما قيل لهم من الرواة ، وأما مريم فكانت تحفظ جميع هذا الكلام متفكّرة به في قلبها . ثم رجع الدعاء وهم يمجّدون الله ويسبّحونه على كل ما سمعوه ورأوه كما قيل لهم ...

وكان رجل في أورشليم اسمه سمعان ، وهذا الرجل كان بارًّا تقيًّا ينتظر تعزية إسرائيل ، والروح القدس كان عليه ، وكان قد أُوحي إليه بالروح القدس أنه لا يرى الموت قبل أن يرى مسيح الرب . فأتى بالروح إلى الهيكل ، وعندما دخل بالصبي يسوع أبواه ليصنعا له حسب عادة الناموس ، أخذه على ذراعيه وبارك الله وقال : الآن نطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام . لأنّ عينيّ قد أبصرتا خلاصك ..

وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح ، ولما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد ، وبعد ما أكملوا الأيام بقى عند رجوعها الصبي يسوع في أورشليم ، ويوسف وأمه لم يعلما . وإذ ظنّاه بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم ، وكان يطلبانه بين الأقرباء والمعارف ، ولما لم يجداه رجعا إلى أورشليم يطلبانه ، وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل جالساً في وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم ، وكلّ الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته!! فلما أبصراه اندهشا ، وقالت له أمه : يا بنّي لماذا فعلت بنا هكذا ؟ هوذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذّبين!! فقال لهما : لماذا كنتم تطلبانني ؟ ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون فيما لأبي؟؟ فلم يفهما الكلام الذي قاله لهما ، ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعاً لهما ، وكانت أمه تحفظ جميع هذه الأمور في قلبها . وأما يسوع فكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس» (لو ٢ : ٨-٢٠ ، ٢٥-٣٠ ، ٤١ - ٥٢) .

تلك كلّها خوارق روتها الأناجيل المتداولة ... كانت تُقدّم الصبي إلى الناس ، وحسبنا ميلاده من خارقة ...

وعن أمثال هذه الخوارق في سيرة محمد قال العقّاد : «والمؤرّخون يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية : يسردون ما أكّده الرواة وما لم يؤكّدوه ، وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه ، وما أيّدته الحوادث أو ناقضته ، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته ... وما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر في إقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبي بالرسالة أو كان ثبوت الإسلام متوقفاً عليها ، لأنّ الذين شهدوا العلامات المزعومة يوم الميلاد لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤدّاها ، ولا عرفوا أنّها علامة على شيء أو على رسالة ستأتي بعد أربعين سنة ، ولأنّ الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا إلى الرسالة ستأتي بعد البشائر بأربعين سنة ولم يشهدوا بشارة واحدة ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه

واحتاجوا إليه !! وقد وُلد مع النبي أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها ، فإذا جاز للمصدّق أن ينسبها إلى مولده جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره ، ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدّقين والمكابرين إلا بعد عشرات السنين : يوم تأتي الدعوة بالآيات والبراهين غنيّةٌ عن شهادة الشاهدين وإنكار المنكرين !! **أما العلامة التي لا التباس فيها ولا سبيل إلى إنكارها ، فهي علامة الكون وعلامة التاريخ ... قالت حوادث الكون : لقد كانت الدنيا في حاجة إلى رسالة ، وقالت حقائق التاريخ : لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة ... ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ**»!![1] .

غير أنّ الأمر مختلف بالنسبة لمولد المسيح ، فلا يمكن أن نغضَّ هنا من أهميّة المعجزة ... فطبيعة الزمان والمكان تلحُّ على أهمية الإعجاز في الإقناع ، ولو لم يكن للمعجزة قيمة ، لما كان ثمة داع للمعجزة الكبرى معجزة ميلاد المسيح من غير أب!! .

«كان الهواء مشحوناً بالحماسة الدينية !! وكان آلاف من اليهود ينتظرون على أحرّ من الجمر مجيء منقذ إسرائيل !! وكان السحر والشياطين والملائكة وحلول الشياطين في أجسام الآدميين وإخراجها ، والمعجزات والنبوءات والاطلاع على الغيب والتنجيم - كانت كلّ هذه عقائد مُسلّماً بها في كل مكان»[2] !!

فمقتضيات النبوة عند بني إسرائيل الذين اعتادوا على النبوءات والآيات ، غير مقتضياتها عند بني إسماعيل في بادية العرب حيث التباهي باللسان والبيان!!.

---

١ - العقاد : عبقرية محمد (طبعة المكتبة التجارية) ص ٣٢ ، ٣٣.

٢ - ديورانت : قصة الحضارة ج٣ م٣ (قيصر والمسيح) - ترجمة بدران ص٢١٥.

لكن .. هل معنى ذلك أنّ المسيحية لا تجد سندا غير معجزاتها الحسيّة الصادعة القارعة؟؟

إنّ المسيحية بالنسبة لنا اليوم تقوم على موضوعيتها لا على خوارقها دون جدال ، فقد تباعد العهد بيننا وبين المعجزات ، ولئن كان لهذه ما كان من أهمية في عصر الميلاد ، فالحجة في عصرنا ليست لمجرّد الغرائب والأعاجيب !

«وقد تعب أصحاب المقارنات والمقابلات كثيراً في اصطياد المشابهات من هنا وهناك ، ولم يكلّفوا أنفسهم جهداً قط فيما هو أولى بالجهد والاجتهاد ... فمتى حدث في تاريخ الأديان أن أشتاتاً مبعثرة من الشعائر والمراسم تُلفِّق نفسها وتخرج في صورة مذهب مستقل دون أن يعرف أحد كيف تلفّقت وكيف انفصلت كل منها عن عبادتها الأولى ؟ ومن هو صاحب الرغبة وصاحب المصلحة في هذه الدعوة ؟ وأيّ شاهد على وجوده في تواريخ الدعاة المعاصرين لسنة الميلاد ؟ وكيف برز هذا العامل التاريخي الديني الخطير على حين فجأة قبل أن ينقضي جيل واحد ؟ ولماذا كان يُخفي مصادر الشعائر والمراسم الأولى ولا يعلنها إلا منسوبة للسيد المسيح ؟؟؟

على أنّ صناعة النقد التاريخي تتّهم نفسها بالعجز البالغ إذا لم تستطع أن تعتمد على الكلام المروى في تقرير (شخصية القائل) وتحقيق مكانه من التاريخ ... ومهما يكن من فصل القول في استقلال كلّ إنجيل أو اعتماد بعضها على بعض ، فهناك علامات واضحة لا يمكن أن يقصدها كُتّاب الأناجيل ، لأنها علامات نفهمها الآن وفاقاً لما درسناه من تطوّر الدعوة المسيحية ، ولم يكن لها محل في رءوس الرواة المشاهدين أو الناقلين . فإنّ روايات الأناجيل تطابق التطور المعقول من بداية الدعوة إلى نهايتها ، ومن التطوّر المعقول :

أن تبتدئ الدعوة قومية عنصرية ثم تنتهي إنسانية عالمية ...

وأن تبتدئ في تحفّظ وهي محافظة ، ثم تنتهي إلى الشدّة والمخالفة ...

وأن تبتدئ بقليل من الثقة في شخصية الداعي ، ثم تنتهي بالثقة التي لا حد لها في نفوس الأتباع !

وهكذا كانت الدعوة المسيحية كما روتها الأناجيل ، دون أن يتعمّد كُتّابها تطبيق أحوال التطور ، أو تلتفت أذهانهم إلى معنى تلك الأحوال .

وربما كان أوضح من هذا في الإبانة عن شخصية الداعي أنّ أقواله تتضمّن نقداً لجميع المذاهب التي كانت شائعة في عصره ، وأنّ هذه الأقوال تشير إلى وجهة نظر واحدة لم يكن لها وجود في تلك الشخصية . فالأقوال المسيحية تنتقد الفريسيين ، لكنها لاتصدر في نقدهم عن وجهة نظر الصدوقيين أو السامريين! وتنتقد أصحاب النصوص ، ولكنها لا تصدر في نقدهم عن وجهة نظر الإباحيين والمتحلّلين وتنتقد الآسين والمتعصبين ، ولكنّها لا تدين بآراء الفلاسفة أو الأبيقوريين والرواقيين . وتنتقد السامريين ، ولكنها لا ترفض السامرية بتاتاً ولا ترفض غيرها من النحل كلّ الرفض من جانب محدود . وتستشهد بأقوال موسى وإبراهيم والأنبياء ، ولكنها لا تتقيّد بكل قول منها تقيّد المحاكاة ولا تقتدي بها اقتداء التابع للمتبوع . وإذا جمعنا وجوه النقد جملة واحدة ، أمكن أن نردّها كلّها إلى وجهة نظر متناسقة وقوام شخصي مرسوم ، وقد يقع فيها الاستثناء حيث ينبغي أن يقع ، لأنّ التناسق الذي يجري مجرى الأعمال الآلية على وتيرة واحدة لا يوافق طبيعة الدعوات الحيّة المتقدّمة – ولا سيما الدعوات في عصر الهدم والبناء والمراجعة والتثبيت .

هذه علامات (موضوعية) لها شأنها الأكبر في الإبانة عن شخصية السيد المسيح .

وأصدق تلك العلامات – بعد هذا كله – أن الدعوة جاءت في إبّانها وفاقا لمطالب زمانها ، بحيث تكون الغرابة أن يخلو الزمن من رسول يقوم بالدعوة ويصلح لأمانتها ، لا أن يوجد الرسول ونستغرب أن يكون . ولو أنّ مؤلفاً بعد

ذلك العصر أراد أن يخلق رسولاً يوافق رسالته المنشودة لوقف به الخيال دون ذلك التوفيق المطبوع »[1] .

والعقاد يتكلم في منطقه بلسان عصر ، والأناجيل تتكلّم في رواية خوارقها بلسان عصر آخر .... وتتضافر مختلف الألوان من البيان - مع تباينها - على تقديم شخصية المسيح ..

فلنتقدم نحو صحبة المسيح في الأناجيل الأربعة ، بعد أن تهيّأت منا الأذهان والقلوب .

---

١ - العقاد : عبقرية المسيح ص٨٨ - ٩٠.

obeikandl.com